عنترة بين عبسيّته وسودانيّته

ترجع معرفتي بعنترة إلى أيام طفولتي يوم كنّا نتباهى بأننا مثل عنترة في قوّة البأس وركوب الخيل، وكنّا نتَّخذ من جريد النخيل خيلاً، وما أعجبها من خيل، ومن الخشب سيوفاً. ثم ما لبثت أن التقيت بهذا الفارس وجهاً لوجه أوّل مرة في تلك الصُوَر التي كانت تُسمّر على حيطان الحلاّقين والمقاهي والمطاعم الهزيلة التي كنا نراها ونحن في طريقنا إلى الكُتّاب أو منه إلى البيت. وكنت كثيراً ما أقف وأتأمّل ذلك الفارس وهو يُريق الدّماء، ويفتك بأعدائه وأعدائي، ومن خلفه كانت عبلة على هودجها وناقتها ترقب الموقف بعينين واسعتين كلّهما إعجاب وفخر بصديقي عنترة غير عابئة بي أو حافلة بوجودي.

وانقلبت معرفتي بعنترة إلى صداقة قويّة حميمة حين وصلت السنة الرابعة الأوّلية، التي صارت فيما بعد الابتدائية، فأخذت أعرفه معرفة وثيقة من سيرته التي

بدأت ألتهمها، ورأيت فيه صديقاً أعرف سريرته وعلانيته، تماماً كما يعرف المتنبّي أصدقاءه، حين قال:

أُصادق روح المرء من قبل جسمه
وأعرفها في فعله والتكلّم

وكذلك كنت مع عنترة، فقد عرفت روحه مِنْ أفعاله وكلامه، عرفته من مبارزاته لأعدائه، ومن هجومه على خصومه، ومن أشعاره العفيفة التي يُنْشدها كلما استقبل مهمة خطرة، أو واجه جمعاً لَجِباً، أو خاض معركة حامية. وخضت معه الأهوال، وصاولت الأبطال، وأفنيت الرجال، وخرجنا أنا وهو دائماً منتصرين.

هكذا أصبحنا رفيقين، لا نفترق رغم وجود البحر الأحمر بيننا، ورغم القرون التي تفصل بينه وبيني، لقد كنّا لا نفترق إلاّ عندما يغلبني الكرى، فأنام لأصبح في صحبة عنترة، وهو يقول في حلبة القتال لأعدائنا: «هل من مبارز؟ هل من مناجز؟».

وتوطّدت الصِّلات بيني وبين صديقي عنترة، أو إن شئت فقل بقريبي عنترة؛ إذ أنا على يقين من أن أُمّه إفريقية. وقد فصّل بعضهم جنسها، فزعم أنها حبشيّة، وقال آخرون: إنها سودانية. وكل هذه الصفات الجلدية إنما ترمز إلى أن عنترة لم يكن من أُمٍّ عربية، بل من

والدة سوداء جُلِبت من إفريقيا. وأنا بعد صلتي بعنترة أميل إلى الاعتقاد بأنّها كانت سودانية لحماً ودماً. وعرفت ذلك من أحاديث عنترة المتكرّرة عن نفسه وعنها في كل آونة وأخرى، فهو يقول: إنها كانت سوداء دقيقة الساقين، مفلفلة الشَّعر. وهذه الخصائص الجسمانية لا تنطبق على الحبشيّات بحالٍ من الأحوال، فهن جيراننا الأزليُّون ونحن بهنّ عارفون. وفي كتب الأدب العربي نجد أنّ العرب إذا تكلَّموا عن الحبشيات وفوهن حقّهن من الجمال وطيب الإمتاع. وكان العرب ـ كما يحدّثنا صاحب البيان والتبيين أستاذنا الجاحظ ـ يحبّون الجواري الحبشيّات لسمرتهنّ ورقّتهنّ، وفتنة أُنوثتهنّ.

أمّا أُمّ عنترة كما يصفها ابنها ويصف نفسه، فقد قال في ذلك:

وأنا ابن سوداء الجبين كأنّها
ضبع ترعرع في رسوم المنزل
الساق منها مثل ساق نعامةٍ
والشعر منها مثل حبّ الفلفل

وكان الناس يُعيِّرون عنترة بسواده وبأُمّه ولونها، أو هكذا كان يخيّل إليه، ولطالما تضايق من ذلك

الحديث. والعرب لم يُعرف عنهم آنذاك أنّهم كانوا يحتقرون الأحباش. ويعود السبب في هذا الأمر إلى ناحية سياسية؛ فالأحباش كانوا دولة قوية سيطرت على جنوبي الجزيرة العربية، وأخضعت الحميريين قبل منتصف القرن السادس الميلادي. وحاولت بعد ذلك أن تفرض سلطانها على بقيّة الجزيرة العربية بأن تهدم الكعبة وتَبسط نفوذها الديني والسياسي بعد ذلك على العرب. ولم يستطع العرب أن يقاوموا جيش الأحباش وقائدهم أبرهة في عام الفيل.

لكن الأمر كان بخلاف ذلك مع السودان، الذي لم يكن بهذه القوّة والمَنْعة حتى يستطيع أن يعبر البحار، ويهدّد الجار. لقد كان السودان منطوياً على نفسه بعيداً عن التجارة الدولية وطُرُقها، وفي تلك الحقبة كانت الدولة البيزنطية تنشر الدِّين المسيحي في ربوعه منذ عام ٥٤٣ ميلادية، وهو وإن كان مسيحياً إلاّ أن الروم في بيزنطة كانوا يجدون في دولة أكسوم الحبشية خير حليف لهم في الصراع الدولي.

ومن هنا نشأت عقدة اللون عند عنترة، فهو دائماً يتحدّث عن لونه، وكيف تُعيِّره العِدا بسواده، ثم يفتخر بتلك الظلمة، ويحاول أن يبرّر ذلك ويبرز محاسن ذلك اللَّون السوداني. ولو كان عنترة حبشي الأُمّ لوجد كنزاً

لا يفنى من الفخر، ولاستطاع أن يعتزّ بأنّ خاله النجاشي، صاحب المُلك الطويل العريض، خاصّة وأنّ عنترة كان يعيش في نفس تلك الفترة التي كانت فيها دولة الأحباش عظيمة القدر والشأن في السياسة الدولية، ولكان عنترة افتخر كما افتخر مهيار الديلمي بأجداده حين سألت عنه أُمّ سعد ـ إحدى المعجبات على ما يبدو ـ وأرادت أن تعرف إلى أيّ قبيلة ينتمي؛ فأجابها بأبياتٍ كثيراً ما تُسعف الذين يحبون الفخر عندما لم يكن لهم فيه فرصة.

قال مهيار:

أُعجبتْ بي بين نادي قومها
أُمُّ سعدٍ فمضت تسأل بي
سرّها ما عَلِمَتْ من خُلُقي
فأرادت عِلمها ما حسبي
لا تخالي حسباً يخفضني
أنا من يرضيك عند النسب
قومي استولوا على الدَّهر فتى
ومضوا فوق رؤوس الحقب
وأبي كسرى عَلا إيوانه
أين في الناس أبٌ مثل أبي

قد قبست المجد من خير أبٍ
وقبست الدِّين من خير نبي
وجمعت المجد من أطرافه
سُؤدد الفرس ودين العرب

بَيْد أن عنترة لم يفتخر بخاله النجاشي؛ لأنه لا ينتمي إليه بصلة، ولم يفتخر بسودانيته؛ لأن ملوك السودان لم يكونوا معروفين في الخارج، واكتفى بأنْ يقول:

إني امرؤٌ من خير عبس منصباً
شطري وأحمي سائري بالمنصل
وإذا الكتيبة أحجمتْ وتلاحظت
أُلْفِيتُ خيراً من معمٍّ مخول

فهنا يحدّثنا حديثاً صريحاً بأنه حين ينتسب لوالده، فإن هذا الشطر من النسب من خير ما عرف العرب. أما الشطر الثاني من نسبه، فإنّ له من كريم الفِعال والذَّوْد عن القبيلة ما يُغنيه عن أخواله ويجعله أشرف بكثير من أُولئك الذين يفتخرون بأنسابهم بدلاً من أفعالهم، كما قال الشاعر العربي في عصرٍ من العصور:

إنّ الفتى مَن يقول هأنذا
ليس الفتى مَنْ يقول كان أبي

وعنترة افتخر بأخلاقه ومحاسن أفعاله، فكان مثلاً عالياً للفارس العربي الأب السوداني الأُمّ، وهو في نظري أوّل سوداني ظهر في غير السودان، وأوّل شاعر سوداني وُلِد وترعرع ونشأ واكتمل خارج حدود بلاده، وهو السوداني المولع بالفروسيّة، الجواد الأريحيي الذي يهزّه خلود ذكره.

لَهْفي عليك يا عنترة، وأنت في حالة اغترابك التي عشتها طيلة حياتك بعيداً عن أخوالك وخالاتك، ولكنك كنت سفيرنا عند أعمامنا، أثبتّ لهم أنّ في السويداء رجالاً، أو على الأصح عناتر؛ لأن كلّنا عنترة، وإنني حين أتحدّث عنك إنما لتعرف أننا لم نَنْسَ لك حُسن بلائك نيابةً عنّا، فقد كنت خير سفير في ديار أعمامنا.

وكان لا بدّ لذي قرابتي عنترة من أن يجد ملاذاً يخلّصه من سواد جلده الذي عابه عليه العرب. هذا السواد الذي إن كان في العين وصفت بالجمال، وإن كان في الخيل وُصِف الجواد بالأدهم وكان محبوباً، فما بال سواد عنترة لا يكون كسواد الشعر والعين والخال والخيل.

يشرح لنا عنترة جهل هؤلاء الشانئين الذين يخوضون في لونه دون أن يفقهوا معنى السواد، فَهُم:

يعيبون لوني بالسواد جهالةً
ولولا سواد اللَّيْل ما طلع الفجرُ

وتارة:

لئن يعيبوا سوادي فهو لي نسب
يوم الفخار إذا ما فاتني النسبُ

ثم بعد ذلك يحاول أن يُوضح للخائضين بأنّ الرجال لا يُقاسون بلون جلدهم، وإنما بأفعالهم وخصائلهم:

تُعيّرني العِدا بسواد جلدي
وبيض خصائلي تَمْحو السَّوادا

غير أن أعراب الجزيرة لم يقتنعوا بكلّ ما ذكره عنترة من فوائد سواد الجلد وخصائصه، ولم يبق إلاّ أن يذكر لهم الفوائد العلمية عن مقدرة امْتصاص الجسم الأسود للحرارة أكثر من الأبيض ـ لو كان يعرف خصائص الحرارة ـ ومع كل ما أدلى به من حديثٍ حول تفوّق اللون الأسود لم يتّفق... إلخ. ولم يتفق معه العرب على أن روعة الخصال هي كل ما يجب أن يتحلّى به الرجل.

لم تُفِد ابن أختنا سرعة بديهته، أو حدَّة ذكائه في الردِّ على القادحين، وأصبح ضحية لنقداتهم اللاذعة حتى ضاق بذلك ذرعاً.

إن الحقيقة الواضحة لي طيلة اتّصالي بعنترة أنه كان حسّاساً جداً في كل أطوار حياته مع أبناء عمومته من العرب، فهو منذ صغره ـ ككل سودانيّ ـ كان يعتقد أنه خيرُ مَنْ في الكون، وأنّ غيره من العرب لا يفضله بشيء. ولذلك فهو منذ حداثته كان يحاول أن يمهّد لنفسه طريقاً غير طريق العبيد؛ فكان يدرّب نفسه على ركوب الخيل والضرب والطعن عندما كان يرعى الإبل حتى اشتهر بين أهله من عبس بإتقانه فنون الحرب، فلمّا استعانوه على الأعداء، واعترف والده به كرّ عليهم كالسوداني المتحمّس حتى خلّص النساء أوّلاً ثم الغنائم ثانياً.

تقول الروايات ـ كما ذكر صاحب الأغاني ـ إنّ بعض أحياء العرب أغاروا على بني عبس، فأصابوا منهم واستاقوا إبلاً، فتبعهم العبسيّون فلحقوا بهم فقاتلوهم عمّا معهم، وعنترة يومئذ فيهم، فقال له أبوه: كرّ يا عنترة، فقال عنترة: «العبد لا يُحسن الكرّ، إنما يُحسن الحلب والصرّ»، فقال له أبوه: كرّ، فأنت حرّ؛ فكرَّ وهو يقول:

أنـا الـهـجـيـن عـنـتـرهْ
كـل امـرىء يـحـمـي حـرهْ
أسـوده وأحـمـره
والـشـعـرات الـمـشـعـرة
الـواردات مـشـفـره

وما أشبه هذا الشعر بكثيرٍ من الشعر السوداني القومي الذي يفتخر به قائلوه في ميادين الحرب والفخر حين يفتخرون بفروسيّتهم وشجاعتهم وأعمالهم الباهرة. هذه الخصال الفريدة التي انفرد بها عنترة هي التي جعلته يرفض حياة العبيد، وينقلب من ذلك الراعي المستعبد إلى الفارس الأسطوري الذي أصبح يذود عن أبناء عمومته. وخرج عنترة من حياة العبودية إلى حياة الحرّية، وأصبح يعيش في غير ذلك الجوّ المتواضع الذي يعجّ بالعبيد، بل أصبح يسير بين رجال معمين مخولين يفتخرون بأحسابهم وأنسابهم، ودخل عنترة منافسة غير متعادلة مع هؤلاء الشبّان، وكان عليه ألاّ يكون مثله أحد؛ لأنه لو أصبح مثلهم في سِلْمهم وحربهم وعاداتهم لَما استساغته النفوس، ولا قربته القلوب. فكان عليه أن يكون جذاباً رقيقاً، وأن يتحلّى بخُلُقٍ يختلف عن خلق العربي العادي، وكان عليه أن

يمتاز بمحاسن الخِلال حتى يبزّ غيره من العرب، فيرى الناس فيه خلقاً أريحيًا، وعزماً قوياً، وشجاعةً نادرة، ووطن عنترة العزم على أن يكون أوْحد زمانه خَلْقاً وخُلُقاً، فخرج بطلاً من أبطال الأساطير لا يكاد المرء يصدّق أنه كان كما يقول ويُذاع. وجمع لنفسه من الخصال الفاضلة ما جعله يبدو مثلاً رائعاً للخلق الكريم في خضمّ الجزيرة الجاهلي، فلم يعد أحد يحفل بسواده، بل أُخِذ الناس بسموّ أخلاقه، وكانت كلماته ترنّ في الآذان عبر القرون:

أنا العبد الذي خُبِّرْتَ عنه
وقد عاينتني فدع السماعا
ولو أرسلتُ رمحي مع جبان
لكان بهيبتي يلقى السّباعا
ملأتُ الأرض خوفاً من حُسامي
وخصمي لم يجد فيها اتّساعا
إذا الأبطال فرّت خوف بأسي
ترى الأقطار باعاً أو ذراعاً

حقًّا لقد شاهدتُ الأبطال وقد ضاقت بهم الأرض الفضاء عندما طلع عليهم عنترة بحسامه وشجاعته، فكانوا يُنْشدون مع النابغة:

فإنك كالليل الذي هو مُدْركي

وإن خلتُ أن المنتأى عنك واسع

obeikandl.com